

# وَجُوهُ التَّعَاوُنِ الْإِنْسَانِيِّ الضَّرُورِيِّ

بِسْمِ الْمَوْ مَنِيرِ

يختبر الناس اليوم «تحوّلاً اجتماعياً وثقافياً حقيقياً تنعكس نتائجه حتى على الحياة الدنيوية» (الجلد والأمل ٤). وكيف لا يأخذهم الدوار جيال التناقضات الرهيبة التي يثيرونها ويعانونها في آن واحد. فالغنى والفقير، والترف والعوز، والقوة والضعف، والجرأة والاستسلام، والحرية والاستعباد، والعلم والجهل، والتقنية المتقدمة والمعجز المتخلف، والصحة والمرض، والحياة والموت، تلك هي أبرز وجوه الاختلال في التوازن، التي تفعل في العالم الحديث فعلها، وتفسد كل العلاقات بين الأمم والجماعات والأشخاص.

أوليس من واجب المؤمنين، سواء أكانوا مسلمين أم يهوداً أم مسيحيين، ان يأتوا، مع جميع الناس ذوي النية الصادقة مهما كان اتناؤهم الديني والإيديولوجي، يجرب متوافق، وأن يعرضوا رسالة موحدة، ويقدموا عملاً مشتركاً؟ فالمشاكل الأساسية التي يجب على المؤمنين أن يجدوا لها، بأعمالهم ثم بأقوالهم وشروحاتهم، الحلول التي يليها عليهم الإيمان بالله والمحبة للناس، إنما هي ذاتها: «ما هو الإنسان؟ ما معنى الألم والشّر والموت، تلك الأمور التي ما زالت قائمة على ما حصل من تقدّم عظيم؟ ماذا يستطيع الإنسان أن يقدم للمجتمع؟ وماذا يستطيع ان ينتظر منه؟ وما هو المصير بعد هذه الحياة؟» (الجلد والأمل ١٠).

## ١ - إكمال الخليقة

ليس الكون، عند أتباع ديانات التوحيد من مسلمين ويهود ومسيحيين، من صنع المصادفة أو الضرورة. بل هو من تدبير رافع لا يكتفه سره إلا الله وحده، لأنه أصله وغايته. فعلى المؤمنين إذن أكثر من أي سواهم، واجب العمل على نجاح العالم، فيوافق أخيراً، على أكمل وجه، مع كل ما خلقه الله لأجله: فالقصد الإلهي ليس يجامد، بل أراد الله فيه أن يلجأ، بحرية ومحبة، الى تعاون الإنسان. أوليس في سبيل ذلك قد لخص فيه، كما في مُسنمة بديعة الحسن، روائع اللامتناهيين الأكبر والأصغر؟ ويعرف المسيحيون: «أن الخليقة تَتَوَقَّعُ مُتَرَقِّبَةً نَجَلِي أَبناءَ الله: فَأَذا أُخْضِعَتْ لِلْبَاطِلِ... فَأَنا عَمَلِي رَجاءُ أَنَّ الْخَلِيقَةَ سَتُعْتَقُ هِيَ أَيْضاً مِنْ عُبودِيَّةِ الْفَسادِ إِلَى حُرِيَّةِ مَجْدِ أَبناءِ الله. فَتَعْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْخَلِيقَةَ كُلهَا مَعاً تَتَمُنُّ حَتَّى الْآنَ وَتَسْتَعْصِمُ» (روم ١٩، ٢٢). أما المسلمون فلا ينسون هم أيضاً ما ورد لهم في كتابهم: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمَاوَاتِ وما فِي الْأَرْضِ» (القرآن ٣١، ٢٠). ويردّد القرآن القول: «وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ إِيَّاهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَنا كُنتُمْ مِنْ كُفُلٍ ما سَأَلْتُمُوهُ» (القرآن ٣٢، ١٤-٣٤). فالْمُؤْمِنُونَ مدْعَوُونَ إِذْنِ بِاسْمِ اللَّهِ نَفْسَهُ، الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِتَوَازُنٍ لا يَبْنِي عَلَى إِزْدِيادٍ فِي التَّرْكِيبِ وَالتَّطَوُّرِ، فِي سَبِيلِ انْجِسامِ شامِلِ اسْمِي، الى العَمَلِ بِعَزمٍ على إِبْصالِ الكونِ أخيراً إلى كِمالِهِ: أفلِيسَ بِالمِشارَكَةِ فِي «إِكمالِ الخَلِيقَةِ» بِسَعَدِ المُسلمِونَ وَالمِسيحيونَ لِيَكْتَشِفُوا أخيراً «سَماءَ جَدِيدَةٍ وَأَرْضاً جَدِيدَةً»؟ (رؤيا ٢١، ١).

فمن شأن المؤمنين أن يتدعروا علاقات جديدة بين الإنسان والطبيعة، تغلب فيها كلمات الاحترام والخصوع والتكيف على كلمات التلوّث والعنف والاستعباد. ويتبع ذلك أيضاً علاقات جديدة بين التقنية والطبيعة، حتى تصير السمات الغالبة على الحياة الحديثة، المسماة بالتمدّن والتصنيع والاستهلاك، دليلاً على سيطرة الإنسان على غرائزه، وتعهده الحكيم للطبيعة التي منها يستخرج خيراته. أو يكون من الخيال المُعَرَّبِ التَّصوُّرُ أَنَّ التَّقْنِيَّةَ سَتَنْصَبِحُ هِيَ أَيْضاً حَضارَةً إنسانيةً، فَتَقْرُنُ، فِي ما